
دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

مساهمة النمو في التاريخ الديمغرافي للمغرب
المجاعات وأثرها على النمو الديمغرافي
أواخر القرن 16-النصف الاول من القرن 18

إدريس أبو إدريس
كليـة الاداب - مكناس-

Driss Abou Idriss

Contribution à l'histoire démographique du Maroc :
Les famines et leurs effets sur la croissance démographique
(fin du XVI ème siècle- 1 ère moitié du XVIII ème siècle.

Résumé :

Le but de la communication est de procèder à l'inventaire des famines au Maroc entre 1578 et 1750 et de montrer leurs effets sur la situation démographique et économique. L'étude se base sur de nouvelles sources (les Nawazills, les récits de voyages, les journaux intimes…(

Contribution to the Moroccan demographic history :
Famines and their impact on demographic growth
(end of 16th century-first half of 18th century)

Abstract :

The aim of the study is to make an inventory of 1578-1750 Morocco famines and to show their influence on demographic and economic situations. The research is based on new sources, such as Nawazil, travel accounts, diaries, etc.

كنانيـــش: منشـــورات كليـــة الآداب - وجـــدة. 1999 ص. 139 - 154

مساهمة في التاريخ الديمغرافي للمغرب
المجاعات وأثرها على النمو الديمغرافي أواخر القرن 16 – النصف الأول من القرن 18

إن الكوارث الطبيعية في تاريخ الشعوب والأمم من العوامل الحاسمة في التغيرات الأساسية لمسيرتها التاريخية، وإن دراسة هذا الجانب تمكننا من فهم الكثير من الأشياء الغامضة، وتوضح لنا أسباب أغلب التقلبات الأساسية والأزمات المتنوعة، فهي تمس كل زوايا المجتمع من العمران إلى الديمغرافية، ومن الاقتصاد إلى الاجتماع، ومن نمط العيش وأشكاله إلى أنماط التفكير وأساليبه.

وإن التاريخ المغربي لمليء بأمثلة تحدي الطبيعة للعمران البشري وآثارها العميقة عليه، ولقد كان للكوارث الطبيعية كالجفاف، والمجاعات، والأوبئة والزلازل وغيرها من الكوارث نتائج وخيمة جدا، وأثرت بشكل جلي على خريطة المغرب السكانية والديمغرافية، وعلى نشاطاته الاقتصادية، وعلى التطور العمراني والحضاري.

والباحث في هذه الكوارث وآثارها على تاريخ المغرب يصطدم بصعوبات تتركز في ندرة المصادر المهتمة بهذ الموضوع، مما يقتضي البحث في مصادر متنوعة للحصول على النزر اليسير من المعطيات، ومن هنا برزت أهمية كتب النوازل والتراجم والرحلات والمذكرات، أما الدراسات الحديثة في هذا الميدان فهي قليلة جدا، رغم ما لهذا الجانب من التاريخ المغربي من أهمية، حيث لا يمكن فهم الكثير من المتغيرات المجتمعية دون اللجوء إليه لمعرفة آثاره العميقة على السيرورة التاريخية للمجتمع المغربي.

وما دراسة المجاعات والأوبئة وكوارث أخرى في الفترة الممتدة من أواخر القرن السادس عشر إلى النصف الأول من القرن الثامن (1578 - 1757)، إلا محاولة لتبيان آثار هذه الكوارث على التقلبات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي عرفتها هذه الفترة المهمة من تاريخ المغرب.

وسنقتصر في بحثنا هذا على تقصي آثار المجاعات وما خلفته من آثار واضحة على كل ماهو بشري واقتصادي وسياسي، وظل مفعولها ساريا إلى ما بعد القرن الثامن عشر.

لقد تميزت فترة القرن السابع عشر والنصف الأول من القرن الثامن عشر بتعدد سنوات المجاعة، وذلك بصفة متتالية تقريبا.

ومن خلال تتبعنا للمصادر التاريخية وإشاراتها إلى سنوات المجاعة، نجد دائما من مرادفات المجاعة: انحباس المطر وقلة المواد الاستهلاكية، وغلاء الأسعار، وكثرة الموتان.

ولقد كانت المجاعات مرتبطة دائما بظروف مناخية، هذه الظروف التي لم تتغير كثيرا عما كانت عليه في التاريخ القديم: سنوات للجفاف، سنوات جيدة وأخرى سيئة، هبوب رياح ضارة بالمزروعات...[1] وأمام عدم قدرة البشر على التحكم في الظروف المناخية ومحاربة الجفاف، كان اللجوء إلى الله والتوسل إليه «لتخفيف ما نزل»، فتعددت بذلك صلوات الاستسقاء وطلب الرحمة.

وكان ينظر إلى هذه المجاعات وكأنها عقاب من الله، ففي مجاعة 987 هـ / 1579 م كان يعتقد أن سببها هو اختلاط أموال الحلال بالحرام بعد غنيمة معركة وادي المخازن. يقول القادري: «وحصل المسلمون على غنيمة لم يكن قط مثلها، إلا أنها لم تقسم وإنما انتهبها الناس، وكان الناس يتوقعون مغبتها لاختلاط الأموال بالحرام فظهر ذلك من غلاء وغيره، وكنا نسمع أن البركة رفعت من الأموال من يومئذ»[2].

ولقد كانت وطأة هذه المجاعة قوية حتى سميت السنة «بعام البقول» وعام «اكحيحة» «بسبب سعال أصاب الناس عامة ووقع فيه غلاء مفرط»[3]. ويضيف الإفراني قائلا: «فلا يزال الإنسان يسعل إلى أن تقبض روحه».

وبعد عشر سنوات تذكر لنا المصادر مسغبة عظيمة «ماعهد مثلها قبلها ولا في الأزمان المتقادمة»[4]، وذلك ابتداء من سنة 997 هـ / 1588 م، لتعم البلاد سنة 998 هـ/ 1589 م، حيث «وقع الجوع في الخلائق أجمعين»[5]، وكانت لها انعكاسات خطيرة على الأوضاع السياسية والاقتصادية، يصفها صاحب «الإصليت» قائلا: «والله لقد باغت [الجوع] الناس من كل ناحية، وما سمعنا به قط في هذه الأحقاب القريبة منا ولا ممن أدركنا مع طول مدته وانضمام الشر إليه واختلال نظم السلطنة معه»[6].

وتذكر المصادر استمرار حلقات المجاعة من سنة 1012 هـ / 1603 م إلى سنة 1017 هـ/ 1608 م، وكانت وطأتها قوية على مدينة فاس في الفترة ما بين 1603 - 1606، حيث أدت إلى مقتل عدد كبير من الناس[7]، ووقع «غلاء عظيم»[8]. واتسع الغلاء وزادت المجاعة لتشمل مجموع المغرب، ومات فيها خلق كثير خاصة في مدينة مراكش[9]. وحتى البوادي قلت بها المواد الاستهلاكية، التي زادت أسعارها، كما وقع لثمن الخبز والقمح بتامسنا[10].

ويذكر كوي **"P.M.COY"** في رسائله ومذكراته، أن الجوع صاحبه الوباء والحروب، وخلت المدن من التجار، خاصة الأجانب، وارتفعت الأسعار بشكل مهول، خاصة منها المواد العلفية (التبن)، وكان يموت من الجوع يوميا عدد كبير من الناس وكذلك الحيوانات (الخيول والبغال والجمال والحمير) لانعدام العلف[11]. وفيما بين 1022 هـ - 1023 / 1613 - 1614، لم تسقط الأمطار، مما أدى إلى تضرر المحاصيل الزراعية[12]، وحدوث غلاء مفرط، ومات كثير من الناس جوعا[13].

وكان للمجاعة أثر قوي على مدينة فاس، حيث: «كثرت الأموات، أحصى صاحب المارستان من عيد الأضحى إلى ربيع النبوي أربعة آلاف وستمائة، وخربت الأطراف والمداشر، ثم رجع الصيف سنة 1023 (1614) بأوقية للمد لقلة من يأكله، لم يبق بلمطة إلا الوحوش وكثر النهب في القوافل...»[14].

ففقدت بذلك فاس جزءا كبيرا من ساكنتها «7000» هالك إلى حدود يناير 1614، وما يقرب من «5000»، ما بين يناير وأبريل 1614، مما يمثل تقريبا أكثر من 10٪ من سكان فاس، ولا شك أن الخسائر البشرية شملت مجموع المغرب لاقتران المجاعة بالحروب والصراعات الدموية[15].

وتذكرالمصادر أن السنوات 1616 / 1025 هـ و 1622 - 1032 و 1625 / 1035 عرفت أمطارا قليلة كانت تأتي في الغالب متأخرة[16]، مما يؤدي إلى قلة المواد الاستهلاكية، وارتفاع أسعارها[17]، وليتأزم الوضع من جديد ما بين سنتي 1626 / 1036 و 1629 / 1039 هـ، وتبدأ المجاعة لتشمل مجموع المغرب، وتكون وطأتها قوية على مدينة مراكش حيث غادرتها أكثر من 700 عائلة[18]، وأدت المجاعة إلى مقتل عدد كبير من الناس، خاصة وأن الجوع كان مصحوبا بالوباء[19].

بعد هذه السنوات الجافة تأتي سنة 1043 هـ / 1633، التي لم يشر إليها إلا مصدر واحد مع عدم تحديد المصادر الأخرى للسنة بالضبط[20]، ففي رسالة محمد بن أبي بكر (1043 هـ / 1633)، إشارة إلى جفاف ومجاعة بمنطقة الغرب، حيث «يبست زروعهم وجفت ضروعهم واشتعلت نار الفتنة بينهم فهم في أشد العذاب»[21].

وفي السنة الموالية تأخر المطر وصلى الناس صلاة الاستسقاء مرارا ولم ينزل المطر[22]، مما أدى إلى حدوث مجاعة في السنة الموالية (1045 / 1635)[23].

وتتفق أغلب المصادر على حدوث مجاعة ما بين 1061 هـ / 1651 و 1063 هـ/ 1653، حيث تأخر نزول المطر، وقلت المواد الغذائية، وارتفعت الأسعار[24] لتعم بعد ذلك المجاعة وتزداد حدتها خاصة بفاس سنة 1063 هـ / 1652 - 53، ويذكر القادري، أن من حوادث العام: « مجاعة كبيرة، وأكلت الجيف وكثر الموت بالأزقة دون ما في المارستان ... وأكل الآدمي بوسط الصفارين جهرا وخلت حومات »[25]. ويذكر دوفري **De Vries**، أن كثيرا من الناس ماتوا جوعا بسلا والبوادي المجاورة لها[26].

وفي سنة 1071 هـ إلى سنة 1073 هـ/ 1660 - 1662 م[27] سيعرف المغرب مجاعة كبيرة نجد لها وصفا مروعا عند صاحب « الإحياء والانتعاش »[28]، الذي ركز على منطقة تادلا والأطلس الكبير الشرقي، وعند القادري بالنسبة لفاس.

يقول الأول عن سنة 1071 هـ / 1660 :

« ... إلى أن دخل عام القحط الشديد والجوع الطويل المديد وهو عام إحدى وسبعين وألف التي تساوى شتاؤه وصيفه واعتدل فيه الحر نهاره وليله... وفزع العباد إلى الاستسقاء وطلب الغيث والاستغفار فلم يجابوا فيما طلبوا بل زاد اليبس في العيون والأنهار... وظهر الجوع في أواخره وقد ارتفع القحط قليلا وجرد سيفه على أهل بلاد المغرب فلم يسلم منه سهله ولا وعره بل عم جميع أطرافه خطبه... وخلا كثيرا من قراها ودشورها... »

ويذكر أن صلاة الاستسقاء أقيمت مرارا بفاس وبزاوية أزغار (الدلاء)، وفي الصحراء وبالأطلس الكبير الشرقي[29].

ويشير القادري إلى أن المطر لم يهطل لمدة أكثر من شهرين واستسقى الناس واجتمعوا لقراءة القرآن وصحيح البخاري بالقرويين[30].

ولقد اشتدت وطأة المجاعة في السنة الموالية 1072 هـ / 1661، وترك لنا صاحب « الإحياء والانتعاش » وصفا دقيقا لها في بعض المناطق ، خاصة بلاد تادلة وأزغار وبلاد الصحراء (سوس ودرعة)، ومراكش وفاس[31].

وما يمكن استخلاصه من نصوص « الإحياء والانتعاش » حول هذه المجاعة يلخص في النقط التالية:

* إن وطأته كانت قوية على بلاد تادلة وأزغار.
* إن مدينة مكناسة لم تعرف المجاعة بنفس الحدة التي عرفتها حواضر ومناطق أخرى.
* إخلاء عدد من القصور والمداشر وهجرة أصحابها، كهجرة أهل تادلة إلى الصحراء، «وخلت البلاد من العمارة من الدلاء إلى أزمور».
* خفة وطأته بالمناطق الجنوبية كدادس ودرعة.
* في مدينة فاس أكلت الناس الحيوانات، ولحم الآدمي[32]، وأكل الناس في بعض المناطق العشب مع الملح[33].
* الارتفاع المهول للأسعار ، خاصة أسعار الحبوب، باستثناء مكناسة.
* عدد الضحايا: 12 ألف بفاس، وفي منطقة أبي الجعد في كل يوم تقام مائة (100) جنازة «وعندما تكثر تتعطل السوق ثلاثة أيام حتى تدفن كل جنازة فيرجعون حتى تكثر الموتى». وفي بلاد المؤلف (أيت عياش) ترك الناس الغسل واكتفوا بالتيمم، ثم تركوا الصلاة، ليتركوا في آخر الأمر حتى الدفن[34].

ويشير القادري إلى استمرار المجاعة بفاس سنة 1073 هـ / 1662، حيث «زاد الغلاء... وأكلت فيه الجيف» «وخلت حومات من فاس»[35].

ومع بداية 1074 هـ / 1663 بدأت الأزمة تخف والأسعار تنخفض، والنهب وقطع الطرق يقل خاصة ما بين الدلاء وفاس[36]. بعدها يشير القادري إلى أزمة خفيفة سنة 1088 هـ / 1677 حيث «انحبس المطر مدة من الزمن، وغلب نزول المطر في الصيف وبرد الجو ووقع بفاس ريح وسعال»، مما أدى إلى ارتفاع الأسعار خاصة بالنسبة للحبوب واللحم حيث عدمت الغنم»[37].

ومما زاد في حدة الأزمة بداية انتشار الوباء بالشمال ليعم المغرب ويكثر الموت[38]. وهكذا نلاحظ قلة الإشارات إلى أزمات أواخر القرن السابع عشر، فبعد سنة 1089 هـ / 1677 نجد إشارة إلى سنة 1091 هـ / 1680 على أنها سنة «القحط والوباء»[39]. خرج السلطان المولى إسماعيل مع سكان مدينة مكناسة حفاة طلبا للاستسقاء ودامت الصلاة من الصباح حتى الرابعة بعد الزوال[40]، ونفس الشيء حدث بفاس حيث أعيدت صلاة الاستسقاء تسع مرات، ونتج عن انحباس المطر، ارتفاع الأسعار خاصة أسعار القمح، ويذكر القادري[41]، كيف انحطت الأثمان بنزول بعض الأمطار، لكنها أمطار متأخرة – جاءت بعد مارس – هذا التأخر الذي نتجت عنه أزمة معيشية أصابت الفئات الفقيرة أساسا، وهناك نص يهودي يبين هذا التفاوت في نسبة الضرر بين

الفئات، حيث أن أغنياء الملاح بفاس كانت منازلهم مملوءة بمختلف الخيرات، والأهرية والمطامير مملوءة بالحبوب وهي ملك لليهود[42]، الذين كان لهم كذلك صندوق للتضامن في مثل هذه الأزمات، نجهل الكيفية التي كان يسير بها[43].

ويظهر أن وطأة جفاف هذه السنة لم تكن قوية نظرا لتوفر الاحتياطي من الحبوب والمواد الأخرى، لكن انعكست آثاره على الأسعار، وقلة المنتوجات المعروضة في الأسواق، وقد ألحق ضررا كبيرا بالفئات الفقيرة على عكس الميسورة التي كان لها فائض احتياطي لمواجهة الجوع، خاصة وأن ظاهرة تأخر المطر أصبحت من سمات هذه الفترة، كما حدث أيضا سنة 1094 هـ / 1683 عندما تأخر المطر وارتفعت الأسعار، وضاق الأمر على الناس وتعددت صلوات الاستسقاء[44].

وتتحدث المصادر عن أربع سنوات للمجاعة ابتداء من سنة 1133 إلى سنة 1137 هـ/ 1720 – 1724، حيث « تمادى الغلاء نحو أربعة أعوام »[45] انعدمت فيها الأقوات وأكلت الناس الجيفة . وفي سنة 1135 هـ / 1722 « فتح السلطان مخازن القمح وفرقه على « الضعفاء والمساكين وذوي العاهات وعبيده الذين بمشرع الرملة »[46].

وعرفت منطقة الجديدة (مازكان) في نفس المدة مجاعة قوية اضطرت الناس – حسب كولفن **Goulven** – إلى بيع نسائهم وأطفالهم للبرتغال للحصول على القوت، وقد أصابت هذه المجاعة حتى المناطق الجنوبية[47].

وتذكر رواية يهودية بفاس سنة 1137 هـ / 1724 nov ، أن الناس أخلت المدينة وانتشرت للتسول في البوادي، ومات من اليهود في هذه السنوات « 2000 » شخص واعتنق « 1000 » يهودي الإسلام[48].

وهذه المجاعة أصابت أيضا المناطق الشمالية، فعندما يذكر وندوس **Windus**، كيف تتم صلاة الاستسقاء سنة 1721 / 1134 هـ، يعلق قائلا: « وقد حدث هذا بطنجة في السابق »[49].

ولم يتراجع الجفاف وتخف وطأة المجاعة إلا في سنة 1137 هـ / 1724، حيث نزل المطر الغزير « ورجع السعر لأصله وعاد كل غريب لمحله »[50].

وبعد هذه السنة لا أثرلمجاعة في المصادر حتى سنة 1142 هـ / 1729، حيث نجد رسالة للباشا أحمد الريفي لأحد شيوخ أهل الريف يشير فيها إلى القحط والجذب الذي عم الريف في هذه السنة[51]. ويظهر أن هذا القحط كان محليا، لما تعرفه منطقة الريف من سنوات للجفاف متتالية بسبب عدم انتظام التساقطات بها.

وفي سنة 1146 هـ / 1733، تأخر المطر وخرج الناس للاستسقاء في مدينة فاس، ويذكر صاحب « الدر المنتخب » أن الصلاة أقيمت ثلاث مرات[52]. وقد يكون هذا الانحباس للمطر محليا، ستعرف مثله مناطق أخرى، لكنه كان أكثر حدة بالمناطق الجنوبية، حيث يحدثنا صاحب

« الدرة الجليلة » عن عام مجاعة (1147 هـ / 1734)، « تقاتل الناس فيه وتناهبوا وأكل الناس أموال الآخرين وأخلوا فيه الديار والقرى من أجل الجوع »(53)، وأغلب الظن أن هذه المسغبة كانت عامة، فبنفس الأسلوب يحدثنا القادري عن آثارها بمدينة فاس، حيث مات فيها خلق كثير وفر الناس إلى النواحي، وضاع من وجهاء الناس حتى المعروفين بالثروة(54).

وازدادت هذه المسغبة حدة وعمت مناطق أخرى سنة 1149 هـ / 1736، حتى إن القادري يهول من آثارها ، حيث علق قائلا: « أشرف جميع من في المغرب على الهلاك، قل القوت، وارتفعت الأسعار، وانقطعت الإمدادات عن فاس من كل ناحية(55)، وتعددت صلوات الاستسقاء (9 صلوات بفاس) « ولم ينزل المطر ، حينئذ اختل النظام وشاع الفساد وحصلت المجاعة العظيمة ومات بالجوع ما لا يحصى وازدادت الفتن وفر الناس »(56)، وأدبر من الخير ما كان مقبلا وأقبل من الشر ما كان مدبرا، وكان وَبَالاً على مدينة مكناسة وفاس ومن جاورهما من الناس »(57).

وستستمر هذه المجاعة حتى سنة 1150 هـ / 1737 - 38 ويزداد الوضع الاقتصادي والاجتماعي تدهورا في السنة الموالية، وكل المصادر العربية تتحدث عن حدة مسغبة 1150 هـ وآثارها على السكان والعمران، فصاحب « البستان » يجعل من ضحاياها بمدينة فاس وحدها « ثمانين ألفا »(58)، كما كثر الخراب في المدينة بتهديم السكان للدور لأخذ أخشابها حتى « خلا من السكن نحو الثلثين... بالجوع والفرار عنها »(59)، وخرج الناس قاصدين تطوان لجلب الحبوب الآتية من الخارج، ولولا هذا المخرج – يقول الناصري – « لهلك جميع من في المغرب »(60)، وكانت هذه الحبوب تدخل من موانئ أخرى كآسفي وسلا.

وقد رسم التاجر الفرنسي راي **Rey** سنة 1738، الصورة التالية: « البلد كلها في درجة قصوى من البؤس، يأكلون كل شيء يمكنه أن يمدد الحياة، لقد أكدوا لنا أنه لم يبق تقريبا أحد بفاس ومكناسة... وقالوا إنه لم يبق كلب أو قط، لقد أكلت كلها »(61).

وحدث في هذه السنة أن ارتفعت أثمان المواد الغذائية – خاصة الحبوب – إلى أقصى حد « مائة مثقال للسوق من القمح »، وانخفضت أثمان المواد غير الاستهلاكية « حتى بيعت الدار الجيدة بستين مثقالا »، وذهب الجوع بعدد لا يحصى من البشر، وعجز الناس عن دفن موتاهم حتى كانوا « يرمونهم في الأزقة والمزابل »(62)، ومما يدل على تفاعل الأوضاع السياسية بالاقتصادية والكوارث الطبيعية لقب السلطان سيدي محمد بن عربية: « سيدي محمد الگايلا »(63) أي الشمس المحرقة.

ونجد صورا درامية لهذه المجاعة عند الأسيرة الهولندية متيلان **Meetelen** التي كانت بمكناسة، فلخصت حالتها بما يلي:

– 48 ألفا ماتوا جوعا.

– أكل الأحياء الأموات، والنساء أطفالهم ، ولم يبق أي حيوان يسير، كما أكلوا التبن والجير[64].

– السلطان وزع على الأسرى عوض الخبز نفايا عصار الزيتون.

– إمدادات من الخارج لم تنفع نظرا لانتشار ظاهرة قطع الطرق.

– الغلاء بمكناسة أكثر من أية مدينة أخرى.

– يؤكد وصف « زهر الأكم » والضعيف السابقين، أن الشوارع والطرقات مملوءة بالجثث، ولم يتمكن الناس من دفنهم لكثرة الموتى، وقد توجد ركامات بشرية في المقابر.

– تخريب المنازل والحوانيت.

– اليهود في ملاحهم، كان عددهم 1.400 أسرة »، مات منها الكثير، حتى لم يستطيعوا دفن موتاهم، ولم يبق منهم إلا أقل من مائتي (200) أسرة.

– تشتت عدد كبير من ضحايا الجوع بالبوادي والجبال والحقول بحثا عن شيء يملأ بطونهم دون جدوى[65].

وهكذا نلاحظ أن مجاعة 1150 هـ / 1737 - 38، كانت أقوى وأخطر مجاعات هذه الفترة ، حتى إن بيلو **T. Pellow** تساءل بهلع: « البلد قد خرب، والجوع يسود، والفوضى تزداد يوما عن يوم، هل يمكن لهذه الحالة أن تدوم[66].

بالطبع سوف لن تدوم هذه المجاعة حيث وقع انفراج في أواسط السنة الموالية، وانخفض ثمن الزرع « فطمع الناس في الحياة بعد اليأس ورخصت ثمار الصيفية مع قلتها لقلة آكلها لأنها تزيد في الجوع »[67].

وقد كان لهذه المجاعة أثر بالغ على السكان إذ أنها أودت بحياة ثلثهم وتشير التقارير إلى أن جيش العبيد نقص عدده من50 الف إلى 4 أو 5 آلاف وانحلت السلطة السياسية وعم الإضراب والفوضى[68].

و استمر التراجع والانفراج حتى سنة 1163 هـ/ 1749 - 50، حيث تزامن انحباس المطر مع انتشار الطاعون، وقد سميت هذه السنة ب « عام اليبسة »، حيث « عطش الزرع النابت » وصلى الناس صلاة الاستسقاء مرارا[69]، إلى آخر السنة حيث يبس الزرع ولم يسقط المطر حتى أبريل، إذ تساقطت رخات عنيفة تركت آثارها على الدور والأشجار، وكان الزرع قد أكلته البهائم[70]، « وأكل الناس إيرني » وكان الأوربيون يأتون بالسفن حاملة اللوبيا[71].

وفي السنة الموالية خفت وطأة هذه المجاعة ، حيث نزلت أمطار ماشهد المغرب مثلها من قبل، وفرح الناس، وانخفضت الأسعار[72].

وكخلاصة لحديثنا عن المجاعات في الفترة الممتدة ما بين 1578 و1757 نود إبداء بعض الملاحظات:

1) إن أغلب المجاعات الناتجة عن انعدام أو قلة التساقطات كانت أحيانا في سنوات متتالية، من 2 إلى 6 سنوات، قد تفصل بينها سنة أو سنتان يتساقط فيها المطر بصفة غير كافية.

الفترة	مدتها	الفترة	مدتها
1588 - 1589	2 س	1720 - 1724	4 س
1603 - 1608	6 س	1733 - 1734	2 س
1613 - 1614	2 س	1736 - 1739	3 س
1626 - 1629	4 س		
1651 - 1653	3 س		
1660 - 1662	3 س		

2) إن حدة هذه المجاعات كانت أقوى أواخر القرن السادس عشر وخلال القرن السابع عشر (23 سنة خلال القرن 17). وبصفة متتالية، وكانت تشمل في غالب الأحيان مجموع المغرب، أما النصف الأول من القرن الثامن عشر فمجاعاته أقل حدة من مجاعات القرن السابع عشر:

12 سنة من المجاعة، أشدها ضررا مجاعة 1150 هـ / 1737 - 38.

3) تضررت بعض المناطق أكثر من غيرها، نظرا لموقعها الجغرافي، وبذلك تكون المجاعة بها لمدة أطول وأكثر حدة، كما هو الحال بالنسبة للمناطق الشمالية الشرقية والمناطق الجنوبية.

كما كانت للمجاعات آثار وخيمة على الديمغرافية والتساكن بالمدن، حيث خلت أغلب الحواضر من ساكنتها، إما بالهجرة أو ارتفاع نسبة الموتان، التي تعطينا عنها المصادر أرقاما تميل إلى المبالغة والتهويل، إلا أنها تنم عن حقيقة أساسية هي وجود خسائر بشرية مهمة جدا شملت كل

الفئـات الاجتماعيـة، الغنيـة منهـا والفقيرة ، المسلمة واليهودية. كما أثرت بشكل كبير على نقص الحيوانات ، فتراجعت عمليات النقل والتبادل لقلة وسائله. يذكر صاحب «الإحياء» أنه في فترة المجاعات أكلت الحمير وحيوانات أخرى، حتى أنك لا تسمع في قرية صياح ديك ولا مواء قط[72].

4) التفاعل الطبيعي والاقتصادي والسياسي في هذه الفترة، فاشتداد المجاعات بعد وفاة المنصور السعدي زاد من حدة الاضطراب السياسي، وأدى إلى انهيار اقتصادي تام، نفس الشيء حدث بعد وفاة المولى إسماعيل ، حيث عم الاضطراب السياسي، واتسع نطا الركود الاقتصادي، وخربت مدينة مكناسة، وأصبح ظل الدولة المركزية لايتجاوزها.

5) في فترة المجاعات تعددت صلوات الاستسقاء حتى أصبحت شيئا مألوفا تخضع لمقاييس وطقوس معينة، كان الناس يخرجون حفاة وبثياب بالية، والإمام راكبا حماره[73]، وقد يغير الإمام لعدة مرات وفي كل يوم، وقد يصبح الذي قام بآخر صلاة سقط بعدها المطر محل إجلال وتعظيم وتعد من كراماته، ويلجأون إليه عند كل نائبة، وقد يساهم اليهود بصلواتهم الخاصة بهم، ومنهم من يلجأ إلى اعتناق الإسلام[74]، وقد تزار قبور بعض الأولياء وحتى اليهود منهم[75]، كما تنتشر بعض الممارسات، كالانتحار وقتل أو رمي الأطفال، والارتماء في الآبار من أجل الغرق، وحدوث حالات للهيجان والثوران[76].

6) من خلال تتبعنا للنصوص التاريخية المعاصرة للفترة المدروسة، نلاحظ أنها كلما تحدثت عن الجفاف والمجاعة إلا وجعلتها في علاقة مع ارتفاع أسعار المواد الاستهلاكية ، خاصة الحبوب وانخفاض أثمان المواد والأشياء غير الاستهلاكية كالدور مثلا، ولقد لاحظ ابن خلدون منذ القرن الرابع عشر أن نقص العمران وقلة ساكنيه يؤديان إلى الاقتصار على الضروري وتضمحل الصنائع التي كانت من توابع الترف[77].

7) لقد حاول المغاربة للتغلب على أزمات المجاعة، الاستعانة بالمنتوجات الآتية من الخارج، والتي كانت تدخل من بعض الموانئ كتطوان بالشمال وآسفي على المحيط، والتي كان بإمكانها التخفيف من حدة المجاعات، لكن انعدام شروط الأمن، وانتشار ظاهرة قطع الطرق، وانعدام ظروف التوزيع المنظم، كل ذلك أضعف من أهمية ذلك التخفيف، خاصة وأن دور الدولة المركزية كان شبه منعدم في عمليات التبادل والتوزيع.

وهكذا نلاحظ الخلل الديمغرافي الذي أصاب المغرب من جراء المجاعات وحدها، فإذا أضيفت إليها الكوارث الأخرى كالأوبئة والزلازل وغيرها، يمكننا تصور مدى الخسارة الديمغرافية الكبيرة التي أصابت المغرب في هذه الفترة وجعلت سكانه يتراجعون من 5 م نسمة إلى 3 م نسمة من القرن 16 إلى القرن 18[78].

جدول تلخيصي للمجاعات ما بين 1578 / 1757

السنة	المنطقة	الآثار
1579 / 987	مجموع المغرب	عام البقول واكحيحة
1588 / 997	مجموع المغرب	القحط الغلاء
1589 / 998	مجموع المغرب	آثار وخيمة اقتصاديا وسياسيا
1603 / 1012 1604 / 1013 1605 / 1014	فاس سوس مجموع المغرب	عدد كبير من الموتى الغلاء – الارتفاع المهول للأسعار وكثرة الموتى
1606 / 1015 1607 / 1016 1608 / 1017	مجموع المغرب مجموع المغرب مجموع المغرب	
1613 / 1022 1614 / 1023	منطقة فاس منطقة فاس	كثرة الموتان وارتفاع الأسعار وانعدام المواد الاستهلاكية (الحبوب)
1626 / 1036 1627 / 1037 1628 / 1038 1629 / 1039	فاس – صفرو – مكناسة فاس – مراكش مجموع المغرب مجموع المغرب	خسائر بشرية كبيرة
1633 / 1043	منطقة الغرب	الفتنة بين القبائل
1635 / 1045	مجموع المغرب	
1651 / 1061 1652 / 1062 1653 / 1063	مجموع المغرب مجموع المغرب فاس	عدد كبير من الضحايا – وإخلاء المدن (فاس)
1660 / 1071 1661 / 1072 1662 / 1073	مجموع المغرب مجموع المغرب فاس	– كثرة الموت – ارتفاع الأسعار – تضرر مدينة فاس – خلاء القبائل للمناطق المتضررة
1677 / 1088	منطقة فاس	
1680 / 1091	مجموع المغرب	الجفاف والوباء وكثرة الموت
83 – 1682 / 1094	مجموع المغرب	تأخر المطر – ارتفاع الأسعار – تعدد صلوات الاستسقاء

السنة	المنطقة	الآثار
1720 / 1133 1721 / 1134 1722 / 1135 1723 / 1136 1724 / 1137	مجموع المغرب مجموع المغرب مجموع المغرب مجموع المغرب مجموع المغرب	– الغلاء وقلة الأقوات – وكثرة الموت – سمي عام 1123 / 1720 بعام خيزو أو عام الصندوق. – بداية تراجعه سنة 1137 - 1724
1729 / 1142	منطقة الريف	قحط شامل للمناطق الشمالية والشمالية الشرقية.
1733 / 1146 1734 / 1147	فاس والمناطق الجنوبية	تأخر المطر – قلة الأقوات – كثرة الموت – إخلاء الديار خاصة في مدينة فاس.
1736 / 1149 38 - 1737 / 1150 39 - 1738 / 1151	مجموع المغرب مجموع المغرب مجموع المغرب	القحط وانحباس المطر – تضرر مكناسة وفاس ونواحيها – كثرة الموت. مجاعة 1151 / 1737 - 38، أكبر مجاعة.
50 - 1749 / 1163	مجموع المغرب	تأخر المطر – انتشار الطاعون – عرفت السنة «بعام اليبسة».

الهوامش

1) X. Planhol - Les Fondements Geographiques de l'Islam. p. 136.

2) القادري: النشر . ج.1 ، ص. 370 وكذلك : Rosenberger et Triki; op . cit. p. 27

3) أبو محلي: الإصليت. م. خ .ح . رقم 100، ورقة 6 ، وكذلك الإفراني : النزهة . ص. 161.

4) المصدر نفسه، ورقة 117.

5) المصدر نفسه، ورقة 29 - 30.

6) المصدر نفسه، ورقة 46.

7) VAJDA. G., Un recueil de textes historiques judeo- Marocain. Hespéris-, 1948- p. 327.

8) القادري : النشر . ج.1، ص 224.

9) Mémoire sur les événements de Marrakech 29 Avril 1607. .S. I. H. M. 1èr serie. Pays bas t.I, Paris, 1906, p. 217.

10) أبو زيد عبد الرحمان الفاسي: ذكر دولة الشرفاء . م. خ. ع ضمن مجموع، رقم د 56 ، ص 115.

11) Relation de P.M. coy Aux Etats Généreaux (1908). S. I. H. M., 1ère serie, P. Bas, t. I. Paris, 1906 p. 471.

12) G. VAJDA; op. cit., p. 332.

13) المجهول : تاريخ ... ، ص. 135، وكذلك G. VAJDA; op.cit., p. 337.

14) أبو زيد عبد الرحمن الفاسي: مصدر سابق، ص. 123.

15) Rosenberger et Triki; op. cit, pp. 6 - 7.

16) G. VAJDA; op.cit., p. 339 et p. 343.

17) القادري : النشر. ج. ا ،. ص. 265.

18) Histoire de la mission des Capucins au Maroc (1625-1639). S.I.H.M., t.III , France , Paris , 1911 , p.167. I

19) Ibid pp. 181 - 182.

20) اعتمد روز نبرجي على رسالة P. du chapard المؤرخة بأكتوبر 1635، والتي تشير إلى مجاعة بالبلاد، وعلى الإفراني الذي لم يحدد بالضبط سنة المجاعة، انظر: Rosenberger et Triki; op. cit., pp. 13 - 14.

21) أبو إملاق :« الخبر عن ظهور العياشي » ، عند، عبد اللطيف الشاذلي: الحركة العياشية . ص. 216.

22) القادري : النشر . ج. 1 ، ص 332.

23) Lettre de P. du chalard., op. cit., 1635 S. I. H. M., t. III France, p.504 et in Rosen berger et TRIKI ,op. cit., p. 14.

24) القادري : النشر . ج2.، ص 53 وكذلك:

Lettre de David de Vries; Salé, op. cit, 1651 , S.I.H.M., Pays-Bas , t.V , 1920 , p.290.

25) القادري: النشر . ج.2، ص 67 - 68.

26) D. de Vries; op.cit, p. 332

27) يشير الإفراني إلى سنة 1070 « عام سبعين» بداية المجاعة حيث « الغلاء المفرط وبلغ الناس فيه غاية الضرر» النزهة . ص 287.

28) العياشي عبد الله بن عمر: الإحياء والانتعاش. م. خ. ع.بالرباط ، رقم د 1433، ورقة 28.

29) المصدر نفسه ، ورقة 249.

30) القادري: النشر. ج.2 ، ص 119.

31) انظر: الإحياء والانتعاش، ورقات: 250 - 251 - 253 - 255.

- وتشير مذكرة دابر Relation de O. Dapper إلى وجود المجاعة بسلا ونواحيها انظر:

S.I.H.M, pays Bas, t.VI, p. 625.

32) العياشي عبد الله: الإحياء. ورقة 251 ، وكذلك القادري : ج. 2 ، ص 129.

33) المصدر نفسه ، ورقة 253.

34) المصدر نفسه ، ورقة 256 - 257.

35) القادري : النشر. ج. 2 ، ص 134.

36) المصدر نفسه ، ص 143.

37) المصدر نفسه ، ص: 223 و ص 232.

38) المصدر نفسه ، ص 232 وكذلك Rosenberger et TRIKI; op.cit, p. 89.

39) عبد الكريم بنموسى الريفي: زهر الأكم. دراسة وتحقيق آسية بنعدادة ، الرباط 1992 ، ص 165.

40) G. Mouette: Histoire de Moulay Ismail. op.cit, p.126.

41) القادري : النشر. ج. 2 ، ص 292 - 293، وفي التقاط الدرر : ص220 - 221.

42) G. Vajda; op.cit, p. 55 et in Rosenberger et TRIKI; op.cit, p. 58.

43) Ibid, p. 31.

44) القادري: النشر. ج 2، ص 311 - 312 ، وفي الحوليات: ص 11، والتقاط الدرر: ص 227.

45) عبد الكريم الريفي : زهر الأكم . ص 200 . ويذكر القادري أن سنة 1133 تعرف ب «عام خيزو» لكثرة زرعه، وب «عام الصندوق»، حيث يوضع الخبز في صندوق يحمل إلى الفرن خوفا من النهب. انظر: النشر. ج. 3، ص 253.

46) محمد بن حمدون : الدر المنتخب . ج. 8 ، ص6 - 7.

47) Voir: Ch. Bois: Années de Disette, années d'abondance, secheresses et pluies au Maroc. Revues pour l'etude des calamités, n 26- 27, Genéve, 1949, p. 8.

48) Y.B Sémach; Une chronique juive de Fes, le "Yahas fes" de Ribbi Abner Hasarfaty - Hesp T XIX 1934 p. 93.

49) وندوس Windus – رحلة إلى مكناس . ترجمة : زهراء إخوان ، تقديم وتعليق : عبد اللطيف الشاذلي، منشورات عمادة جامعة المولى إسماعيل ، ص 58.

50) محمد بن حمدون : الدر المنتخب . ج. 8 ، ص 8.

51) انظر: محمد داود : تاريخ تطوان . ج. 2 ، ص 202 - 203.

52) محمد بن حمدون : الدر المنتخب . ج. 8 ، ص 249.

53) الخليفتي محمد بن عبد الله : الدرة الجليلة . ص: 304، ويضيف القادري أن تلك السنة كان اليبس بمراكش وحوزها : النشر . ج. 3 ، ص 370.

54) القادري : التقاط الدرر . ص 375.

55) القادري: النشر. ج. 3 ، ص 396 - 397 ، و ص 400.

56) محمد بن حمدون: الدر المنتخب. ج. 8 ، ص 304 - 305 . وعند ابن زيدان: الإتحاف . ج. 4، ص 414.

57) عبد الكريم الريفي: زهر الأكم . ص 245.

58) الزياني : م. خ. ح . بالرباط، . رقم 242 ص 66، وكذلك محمد بن حمدون : الدر المنتخب . ج. 8 ، ص: 414.

59) القادري : النشر. ج 2 ، ص: 404، وكذلك محمد بن حمدون : الدر المنتخب . ج .8 ، ص 317 - 318. وابن

زيدان : الأتحاف . ج. 4، ص 416.

60) الناصري : الاستقصا . ج. 7 ، ص 146.

61) Voir: M. Abitbol; Tombouctou et les Armas , Maisonneuve , Larose Paris, 1979, pp. 173 - 174.

62) عبد الكريم الريفي : زهر الأكم . ص 249 ، والضعيف : تاريخ ... ، ص 125.

63) الضعيف : تاريخ ...، ص 126.

64) من الظواهر التي انتشرت في فترة المجاعات القوية استهلاك بعض المواد غير الغذائية ويذكر القادري أن محمدا التادلي البكري ألف تأليفا سماه «القول المأثور في أن القول ببيع الجبس في المسبغة ليس بشرور» [توفي صاحب المؤلف سنة 1164 هـ] انظر: القادري : الأكليل والتاج . م. خ.ح بالرباط ، رقم 3717 ، ص 234 ويذكر الأسير دوليون أنه في سنة مجاعة خلط الطحانون بمكناسة الجير بالدقيق مما كان سببا في موت عدد كبير من الأشخاص.

Chantal de la veronne, Vie de Moulay Ismaîl d'aprés Jose de leon, op.cit, p. 49.

65) M.T. Meetelen; L'Annotation ponctuelle (Hoorn 1748) Traduit du Neerlandais par GH. Bousquet et Co. W. Bousquet Mirandolie, Larose, Paris, 1956, p. 44 et suiv.

66) T. Pellow op.cit, p. 156.

67) القادري : النشر. ج. 4 ، ص 14.

68) La Relation des Franciscains, op.cit, p. 73.

69) الضعيف – تاريخ.. ، ص155، وكذلك محمد بن حمدون : الدر المنتخب . ج. 9 ، ص 143 - 144 و 145.

70) القادري : النشر. ج. 4 ، ص 83.

71) محمد بن حمدون : الدر المنتخب . ج. 9 ، ص 146.

72) المصدر نفسه، ص 146 و 174. انظر العياشي: الإحياء . ورقة 248 - 251 - 258.

73) القادري – النشر. ج. 2 ، ص 292 - 293.

74) Vajda. op.cit, p. 21.

75) L. Voinot Pélerinage judeo-musulman du Maroc, I.H.E.M., Notes et documents 1948 - 132 et in - Resenberger et TRIKI, op. cit., p. 31.

76) G. Vajda; op.cit, p. 21.

77) ابن خلدون : المقدمة . ص 403 - 404.

78) Rosenberger et autre Histoire du Maroc (1967), p. 263.